❁ ❁ ❁

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية. **ذكر حديث غريب في فضلها**: قال البيهقي في كتاب «الخلافيات»: حدثنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي بمرو، حدثنا أحمد بن عُبَيد الله النرسي، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت بن شرحبيل، حدثني عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق، عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة، عن أبيه، عن جدته أم هانىء بنت أبي طالب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فضل الله قريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله، ﷻ، عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن» ثم تلاها رسول الله: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ وإن كانت متعلقة بما قبلها. كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم. هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ﴾، بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال:

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ . وقال ابن جرير: الصواب أن «اللام» لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك. قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان. ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾ أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١﴾ [النمل: ٩١]. وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ أي: تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١١٣﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن عمرو العَدَني، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل أمكم، قريش، لإيلاف قريش». ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا المؤمَّل بن الفضل الحراني، حدثنا عيسى ـ يعني ابن يونس ـ عن عُبَيد الله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ . ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف». هكذا رأيته عن أسامة بن زيد، وصوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن، أم سلمة الأنصارية، رضي الله عنها. فلعله وقع غلط في النسخة أو في أصل الرواية، والله أعلم.

آخر تفسير سورة «لإيلاف قريش»



(١٠٦) سورة قريش مكية
وآياتها أربع

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لإيلاف قريش إيلافهم ﴾ اعلم أن ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اللام فى قوله (لإيلاف) تحتمل وجوهاً ثلاثة ، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التى قبلها أو بالآية التى بعدها ، أولا تكون متعلقة لا بما قبلها ، ولا بما بعدها (أما الوجه الأول) وهو أن تكون متعلقة بما قبلها ، ففيه احتمالات :

﴿ الأول ﴾ وهو قول الزجاج وأبى عبيدة أن التقدير (فجعلهم كعصف مأكول) لإلف قريش أى أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ، فإن قيل : هذا ضعيف لأنهم إنما جعلوا (كعصف مأكول) لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش ، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه (أحدها) أنا لا نسلم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم ، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة ، قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وقال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم ، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار ، بل إنما فعل ذلك بهم (لإيلاف قريش) ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم (وثانيها) هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافى كون شىء آخر مقصود حتى يكون الحكم واقعاً بمجموع الأمرين معاً (وثالثها) هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط ، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى إلى إيلاف قريش ، جاز أن يقال أهلكوا لإيلاف قريش ، كقوله تعالى (ليكون لهم عدواً وحزناً) وهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يمهد عليه الالتقاط .

﴿ الاحتمال الثانى ﴾ أن يكون التقدير (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، لإيلاف قريش) كأنه تعالى قال كل مافعلنا بهم فقد فعلناه ، لإيلاف قريش ، فإنه تعالى جعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، حتى صاروا كعصف مأكول ، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش .

﴿ الاحتمال الثالث ﴾ أن تكون اللام فى قوله (لإيلاف) بمعنى إلى كأنه قال فعلنا كل مافعلنا فى السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهى إيلافهم (رحلة الشتاء والصيف) تقول نعمة الله نعمة ونعمة لنعمة سواء فى المعنى ، هذا قول الفراء ، فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التى قبل هذه ، وبقى من مباحث هذا القول أمران :

﴿ الأول ﴾ أن للناس فى تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين : (أحدهما) أن جعلوا السورتين سورة واحد واحتجوا عليه بوجوه : (أحدها) أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة (وثانيها) أن أبى بن كعب جعلهما فى مصحفه سورة واحدة (وثالثها) ماروى أن عمر قرأ فى صلاة المغرب فى الركعة الأولى والتين ، وفى الثانية ألم تر ولإيلاف قريش معاً ، من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم : (القول الثانى) وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً ويبين بعضها معنى بعض ، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة ، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عند من يقول به ، وقوله (إنا أنزلناه) متعلق بما قبله من ذكر القرآن ، وأما قوله إن أبياً لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما ، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الامام قد يقرأ سورتين .

﴿البحث الثانى﴾ فيما يتعلق بهذا القول بيان أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً لإيلاف قريش ؟ فنقول لاشك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى (بواد غير ذى زرع) إلى قوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وهم إنما كانوا يربحون فى أسفارهم ، ولأن ملوك النواحى كانوا يعظمون أهل مكة ، ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة حتى أنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فلو تم للحبشة ماعزموا عليه من هدم الكعبة ، ازال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا فى التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحى يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم فى نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم فى نحرهم ازداد وقع أهل مكة فى القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلهذا قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) (لإيلاف قريش . . . رحلة الشتاء والصيف) .
(والوجه الثانى) فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى فى آخر هذه السورة (فليعبدوا رب

هذا البيت الذى) إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة .

﴿ القول الثانى ﴾ وهو أن اللام فى (لإيلاف) متعلقة بقوله (فليعبدوا) وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت ، لإيلاف قريش . أى ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها ، فإن قيل فلم دخلت الفاء فى قوله (فليعبدوا) ؟ قلنا لما فى الكلام من معنى الشرط ، وذلك لأن نعم الله عليهم لاتحصى ، فكأنه قيل إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة .

﴿ القول الثالث ﴾ أن تكون هذه اللام غير متعلقة ، لا بما قبلها ولا بما بعدها ، قال الزجاج : قال قوم هذه اللام لام التعجب ، كأن المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وجهلا وانغماساً فى عبادة الأوثان ، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معايشهم ، وذلك لا شك أنه فى غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه ، ونظيره فى اللغة قولك لزيد وما صنعنا به . ولزيد وكرامتنا إياه . وهذا اختيار الكسائى والأخفش والفراء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فى الإيلاف ثلاثة أوجه (أحدها) أن الإيلاف هو الإلف قال علماء اللغة ألفت الشىء وألفته إلفاً وإلافاً وإيلافاً بمعنى واحد ، أى لزمته فيكون المعنى لإلاف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر : لإلف قريش . وقرأ الآخرون لإلاف قريش ، وقرأ عكرمة ليلاف قريش (وثانيها) أن يكون هذا من قولك لزمت موضع كذا وألزمنيه الله ، كذا تقول ألفت كذا ، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذى فيه لطف ألف بنفسه إلفاً وآلفه غيره إيلافاً ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت فى قريش بتدبير الله وهو كقوله (ولكن الله ألف بينهم) وقال (وألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وقد تكون المسرة سبباً للمؤانسة والاتفاق ، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش ، فيكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول ، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتيهم (وثالثها) أن يكون الايلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابى ، فيكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل ، والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر ليلاف بغير همز لحذف همزة الإفعال حذفاً كلياً وهو كمذهبه فى يستهزون وقد مر تقريره .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ التكرير فى قوله (لإيلاف قريش إيلافهم) هو أنه أطلق الايلاف أولا ثم جعل المقيد بدلا لذلك المطلق تفخيما لأمر الايلاف وتذكيراً لعظيم المنة فيه ، والأقرب أن يكون قوله (لايلاف قريش) عاماً يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم . فيدخل فيه مقامهم

رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾

وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم كما فى قوله (وجبريل وميكائيل) وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة ، تقول العرب : ألفت كذا أى لزمته ، والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئاً لزمه ، ومنه (ألزمهم كلمة التقوى) كما أن الإلجاء ضربان (أحدهما) لدفع الضرر كالهرب من السبع (والثانى) لطلب النفع العظيم ، كمن يجد مالا عظيما ولا مانع من أخذه لا عقلا ولا شرعا ولا حساً فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ ، وكذا الدواعى التى تكون دون الالجاء ، مرة تكون لدفع الضرر وأخرى لجلب النفع ، وهو المراد فى قوله (إيلافهم)

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اتفقوا على أن قريشاً ولد النضر بن كنانة ، قال عليه الصلاة والسلام « إنا بنى النضر بن كنانة لانقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا » وذكروا فى سبب هذه التسمية وجوها (أحدها) أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ، ولا تنطلق إلا بالنار وعن معاوية أنه سأل ابن عباس : بم سميت قريش ؟ قال بدابة فى البحر تأكل ولا تؤكل ، تعلو ولا تعلى ، وأنشد :

وقريش هى التى تسكن البحـــر بها سميت قريش قريشاً

والتصغير للتعظيم ، ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تلى أمر الأمة ، فإن الأئمة من قريش (وثانيها) أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد (وثالثها) قال الليث كانوا متفرقين فى غير الحرم ، فجمعهم قصى بن كلاب فى الحرم حتى اتخذوها مسكناً ، فسموا قريشاً لأن التقرش هو التجمع ، يقال تقرش القوم إذا اجتمعوا ، ولذلك سمى قصى مجمعاً ، قال الشاعر :

أبو كم قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

(ورابعها) أنهم كانوا يسدون خلة محاويج الحاج ، فسموا بذلك قريشاً ، لأن القرش التفتيش قال ابن حرة :

أيها الشامت المقرش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء

قوله تعالى : ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الليث الرحلة اسم الارتحال من القوم للمسير ، وفى المراد من هذه الرحلة قولان (الأول) وهو المشهور ، قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشأم ، وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب فى ذلك هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفس خباء حتى يموتوا ،

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾

إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والمجاعة فدخل أسد على أمه يبكى فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيباً فى قريش ، فقال إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، قال الشاعر فيهم :

الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب الفيل ماأرادوا ، لترك أهل الأقطار تعظيمهم وأيضاً لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور فى قوله (وقطعناهم فى الأرض أمما) واجتماع القبيلة الواحدة فى مكان واحد أدخل فى النعمة من أن يكون الإجتماع من قبائل شتى ، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والألفة ، ومنه قوله تعالى (ولا جدال فى الحج) والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة (القول الثانى) أن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذى الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً وموسم منافع مكة يكون بهما ، ولو كان يتم لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نصب الرحلة بإيلافيهم مفعولا به ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس كقوله : كلوا فى بعض بطنكم ، وقيل معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وقرىء رحلة بضم الراء وهى الجهة .

قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين (أحدهما) دفع الضرر (والثانى) جلب النفع والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع [فانه] غير واجب ، فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر فى سورة الفيل ونعمة جلب النفع فى هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لابد وأن يقابل بالشكر والعبودية ، لاجرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال (فليعبدوا) وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا أن العبادة هى التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون ، ثم قال بعضهم : أراد فليوحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذى حفظ البيت دون الأوثان ، ولأن التوحيد مفتاح العبادات ، ومنهم من قال المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح

الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ

ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات ، والأولى حمله على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرجه الدليل ، وفى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون معنى فليعبدوا أى فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلو بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ، ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة إن للبيت رباً سيحفظه ، ولم يعولوا فى ذلك على الأصنام فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه ، كأنه يقول لما عولتم فى الحفظ على فاصرفوا العبادة والخدمة إلى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإشارة إلى البيت فى هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول ياعبادى وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول وإلهكم كذا فى البيت [تارة] يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله (فيعدوا رب هذا البيت) وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول (طهرا بيتى)

ثم قال تعالى ﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ وفى هذا الاطعام وجوه (أحدها) أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم فى رحلتهم كان ذلك سبب إطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع (ثانيها) قال مقاتل شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام فى الشتاء والصيف لطلب الرزق ، فقذف الله تعالى فى قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام فى السفن إلى مكة فحملوه ، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالإبل والخمر ، ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك ، فكفاهم الله مؤونة الرحلتين (ثالثها) قال الكلبى هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا يامحمد ادع الله فإنا مؤمنون ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط ، فذاك قوله (أطعمهم من جوع) ثم فى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ العبادة إنما وجبت لأنه تعالى أعطى أصول النعم ، والاطعام ليس من أصول النعم ، فلماذا علل وجوب العبادة بالإطعام ؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة ، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم ، ثم أمرهم بالعبادة ، فكان السائل يقول : لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس ، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذى أيطعمنا ، فقال : الذى أطعمهم من جوع ، قبل أن يعبدوه ، ألا يطعمهم إذا عبدوه ! (وثانيها) أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه ، ثم إنه يطعمهم مع ذلك ، فكأنه تعالى يقول : إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحى من إحسانى إليك بعد إساءتك (وثالثها) إنما ذكر الإنعام ، لأن البهيمة تطيع من يعلفها ، فكأنه تعالى يقول لست دون البهيمة .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أليس أنه جعل الدنيا ملكا لنا بقوله (خلق لكم ما فى الأرض جميعاً)

وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

فكيف تحسن المنة علينا بأن أعطانا ملكنا ؟ (الجواب) انظر فى الأشياء التى لابد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتهيأ ، وفى الأشياء التى لابد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول ، فإنك تعلم أنه لابد من الأفلاك والكواكب ، ولابد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام ، ولابد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام ، وحينئذ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ المنة بالإطعام لا تليق بمن له شىء من الكرم ، فكيف بأكرم الأكرمين ؟ (الجواب) ليس الغرض منه المنة ، بل الإرشاد إلى الأصلح ، لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة ، بل تقوية البنية على أداء الطاعات ، فكأن المقصود من الأمر بالعبادة ذلك .

﴿ السؤال الربع ﴾ ما الفائدة فى قوله (من جوع) ؟ (الجواب) فيه فوائد (أحدها) التنبيه على أن أمر الجوع شديد ، ومنه قوله تعالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) وقوله ﷺ « من أصبح آمناً فى سربه » الحديث (وثانيها) تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهى الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة (وثالثها) التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة ، لأنه لم يقل وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع ، أما الإشباع فإنه يورث البطنة .

أما قوله تعالى ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ ففى تفسيره وجوه (أحدها) أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يغير عليهم أحد لا فى سفرهم ، ولا فى حضرهم وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة فى السفر والحضر ، وهذا معنى قوله (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً) (ثانيها) أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل (وثالثها) قال الضحاك والربيع : وآمنهم من خوف الجذام ، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام (ورابعها) آمنهم من خوف أن تكون الخلافة فى غيرهم (وخامسها) آمنهم بالإسلام ، فقد كانوا فى الكفر يتفكرون ، فيعلمون أن الدين الذى هم عليه ليس بشىء ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذى يجب على العاقل أن يتمسك به (وسادسها) أطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحى ، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى ، كأنه تعالى يقول : يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم ، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب ، ثم أنزلت الوحى على نبيكم ، وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون

أهل العلم والقرآن ، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ، ثم إطعام الطعام الذى يكون غذاء الجسد يوجب الشكر ، فإطعام الطعام الذى هو غذاء الروح ، ألا يكون موجباً للشكر ! وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم لم يقل عن جوع وعن خوف ؟ (قلنا) لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيداً عنهم ، وهذا يقتضى أن يكون ذلك التبعيد مسبوقاً بمقاشاة الجوع زماناً ، ثم يصرفه عنه ، ومن لا تقتضى ذلك ، بل معناه أنهم عند ما يجوعون يطعمون ، وحين ما يخافون يؤمنون .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم قال من جوع ، من خوف على سبيل التنكير ؟ (الجواب) المراد من التنكير التعظيم . أما الجوع فلما روينا : أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة . وأما الخوف ، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل ، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير ، يكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم فى ذلك الجوع القليل والخوف القليل ، فكيف يجوز فى كرمه لو عبدوه أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه (أطعمهم من جوع) دون جوع (وآمنهم من خوف) دون خوف ، ليكون الجوع الثانى ، والخوف الثانى مذكراً ما كانوا فيه أولا من أنواع الجوع والخوف ، حتى يكونوا شاكرين من وجه ، وصابرين من وجه آخر ، فيستحقوا ثواب الخصلتين .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أما فى الإطعام فهو قوله (وارزق أهله) وأما الأمان فهو قوله (اجعل هذا البلد آمناً) وإذا كان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين ؟ (والجواب) أن الله تعالى لما قال (إنى جاعلك للناس إماماً) قال إبراهيم (ومن ذريتى) فقال الله تعالى (لا ينال عهدى الظالمين) فنادى إبراهيم بهذا الأدب ، فحين قال (رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات) قيده بقوله (من آمن بالله) فقال الله لا حاجة إلى هذا التقييد ، بل ومن كفر فأمتعه قليلا ، فكأنه تعالى قال : أما نعمة الأمان فهى دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقياً ، وأما نعمة الدنيا فهى تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح ، وإن كان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع ، وأمانه من الخوف إنعاماً من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم ، فزال السؤال . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

١٠٦ — سورة قريش
(مكية وهى أربع آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ١٠٦ قريش

إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ ١٠٦ قريش

فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ١٠٦ قريش

ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ١٠٦ قريش

﴿ سورة قريش مكية وآيها أربع ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (لإيلاف قريش) متعلق بقوله تعالى فليعبدوا والفاء لما فى الكلام
من معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه
النعمة الجليلة وقيل بمضمر تقديره فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف الخ وقيل تقديره
أعجبوا لإيلاف الخ وقيل بما قبله من قوله تعالى فجعلهم كعصف مأكول ويؤيده أنهما فى مصحف أبى
سورة واحدة بلا فصل والمعنى أهلك من قصدهم من الحبشة ليتسامع الناس فيتهيبوا لهم زيادة تهيب
ويحترمون فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتيهم فلا يجترىء عليهم أحد وكانت لقريش
رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام فيتمارون ويتجرون وكانوا فى رحلتيهم
آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب
والإيلاف من قولك آلفت المكان إيلافا إذا ألفته وقرىء لالإف قريش أى لمؤالفتهم وقيل يقال
ألفته ألفاً وإلافا وقرىء لإلف قريش وقريش ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش وهو دابة
عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار والتصغير للتعظيم وقيل من القرش وهو الكسب لأنهم
٢ كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد وقوله تعالى (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) بدل من الأول
ورحلة مفعول لإيلافهم وإفرادها مع أن المراد رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس وفى إطلاق
الإيلاف عن المفعول أولا وإبدال هذا منه تفخيم لأمره وتذكير لعظيم النعمة فيه وقرىء ليألف
٣ قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف وقرىء رحلة بالضم وهى الجهة التى يرحل إليها (فليعبدوا رب
٤ هذا البيت) (الذى أطعمهم) بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا فيهما بواسطة كونهم من جيرانه

سورة قريش

ويقال سورة لايلاف قريش وهي مكية فى قول الجمهور مدنية في قول الضحاك وابن السائب وآيها خمس في الحجازى وأربع في غيره ومناسبتها لما قبلها أظهر من أن تخفى بل قالت طائفة انهما سورة واحدة واحتجوا عليه بان أبى بن كعب لم يفصل بينهما فى مصحفه بالبسملة بما روى عن عمرو بن ميمون الازدى قال صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقرأ في الركعة الاولى والتين وفى الثانية الم تر ولايلاف قريش من غير ان يفصل بالبسملة وأجيب بان جما أثبتوا الفصل في مصحف أبى والمثبت مقدم على النافي وبان خبر ابن ميمون ان سلمت صحته محتمل لعدم سماعه ولعله قرأها سرا ويدل على كونها سورة مستقلة ماأخرج البخارى في تاريخه والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الخلافيات عن أم هانىء بنت أبى طالب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال فضل الله تعالى قريشا بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم ولايعطاها أحد بعدهم أنى فيهم وفي لفظ النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجابة فيهم والسقاية فيهم ونصروا على الفيل وعبدوا الله تعالى سبع سنين وفى لفظ عشر سنين لم يعبده سبحانه أحد غيرهم ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لايلاف قريش وجاء نحو هذا الاخير في خبرين آخرين أحدهما عن الزبير بن العوام يرفعه والثانى عن سعيد بن المسيب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ويؤيد الاستقلال كون آيها ليست على نمط آى ماقبلها وأنت تعلم انه بعد ثبوت تواتر الفصل لايحتاج الى شىء مما ذكر

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ الايلاف على ماقال الخفاجى مصدر ألفت الشىء وآلفته من الالف وهو كما قال الراغب اجتماع مع التئام وقال الهروى في الغريبين الايلاف عهود بينهم وبين الملوك فكان هاشم يؤلف ملك الشام والمطلب كسرى وعبد شمس ونوفل يؤالفان ملك مصر والحبشة قال ومعنى يؤالف يعاهد ويصالح وفعله آلف على وزن فاعل ومصدره الاف بغيرياء بزنة قبال أو ألف الثلاثى ككتب كتابا ويكون الفعل منه أيضا على وزن أفعل مثل آمن ومصدره ايلاف كايمان وحمل الايلاف على العهود خلاف ماعليه الجمهور كما لايخفى على المتتبع وفي البحر ايلاف مصدر آلف رباعيا والاف مصدر ألف ثلاثيا يقال ألف الرجل الامر ألفا وآلافا وآلف غيره اياه وقد يأتى آلف متعديا لواحد كالف ومنه قوله

من المؤلفات الرمل أدماء حرة ✡ شعاع الضحى في جيدها يتوضح

وسيأتى ان شاء الله تعالى مافي ذلك من القراآت وقريش ولد النضر بن كنانة وهو أصح الاقوال وأثبتها عند القرطبى قيل وعليه الفقهاء لظاهر ماروى أنه عليه الصلاة والسلام سئل من قريش فقال من ولد النضر وقيل ولد فهر بن مالك بن النضر وحكى ذلك عن الاكثرين بل قال الزبير بن بكار أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشا انما تفرقت عن فهر واسمه عند غير واحد قريش وفهر لقبه ويكنى بابى غالب وقيل ولد مخلد بن النضر وهو ضعيف وفي بعض السير انه لاعقب للنضر ابن كنانة الا مالك وأضعف من ذلك بل هو قول رافضى يريد به نفى حقية خلافة الشيخين أنهم ولد قصى بن حكيم وقيل عروة المشهور بلقبه كلاب لكثرة صيده أو لمكالبته أى مواثبته في الحرب للاعداء نعم قصى جمع قريشا في الحرم حتى اتخذوه مسكنا بعد ان كانوا متفرقين في غيره وهذا الذى عناه الشاعر بقوله

أبونا قصى كان يدعى مجمعا ✡ به جمع الله القبائل من فهر

فلا يدل على ما زعمه أصلا وهو في الاصل تصغير قرش بفتح القاف اسم لدابة في البحر أقوى دوابه تأ كل ولا تؤ كل وتعلو ولا تعلى وبذلك أجاب ابن عباس معاوية لما سأله لم سميت قريش قريشا وتلك الدابة تسمى قرشا كما هو المذكور في كلام الحبر وتسمى قريشا وعليه قول تبع كما حكاه عنه أبو الوليد الازرقي وأنشده أيضا الحبر لمعاوية الا أنه نسبه للجمحي

وقريش هي التي تسكن البحـ ✡ ـر بها سميت قريش قريشا

تأ كل الغث والسمين ولا تتـ ✡ ـرك يوما لذى جناحين ريشا

هكذا في البلاد حى قريش ✡ يأ كلون البلاد أ كلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبى ✡ يكثر القتل فيهم والخموشا

وقال الفراء هو من التقرش بمعنى التكسب سموا بذلك لتجارتهم وقيل من التقريش وهو التفتيش ومنه قول الحرث ابن حلزة

أيها الشامت المقرش عنا ✡ عند عمرو فهل لنا ابقاء

سموا بذلك لان أباهم كان يفتش عن أرباب الحوائج ليقضى حوائجهم وكذا كانوا هم يفتشون على ذى الخلة من الحاج ليسدوها وقيل من التقرش وهو التجمع ومنه قوله

اخوة قرشوا الذنوب علينا ✡ في حديث من دهرهم وقديم

سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق والتصغير اذا كان من المزيد تصغير ترخيم واذا كان من ثلاثى مجرد فهو على أصله وأياما كان فهو للتعظيم مثله في قوله

وكل أناس سوف تدخل بينهم ✡ دويهية تصفر منها الانامل

والنسبة اليه قرشى وقريشى كما في القاموس وأجمعوا على صرفه هنا راعوا فيه معنى الحى ويجوز منع صرفه ملحوظا فيه معنى القبيلة للعلمية والتانيث وعليه قوله ✡ وكفى قريش المعضلات وسادها ✡ وعن سيبويه أنه قال في نحو معد وقريش وثقيف هذه للاحياء اكثر وان جعلت اسماء للقبائل لجائز حسن واللام في لايلاف للتعليل والجار والمجرور متعلق عند الخليل بقوله فليعبدوا والفاء لما في الكلام من معنى الشرط اذ المعنى ان نعم الله تعالى غير محصورة فان لم يعبدوا لسائر نعمه سبحانه فليعبدوا لهذه النعمة الجليلة ولما لم تكن في جواب شرط محقق كانت فى الحقيقة زائدة فلا يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها وقوله تعالى ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ بدل من إيلاف قريش ورحلة مفعول به لايلافهم على تقدير ان يكون من الالفة أما اذا كان من المؤالفة بمعنى المعاهدة فهو منصوب على نزع الخافض أى معاهدتهم على أو لاجل رحلة الخ واطلاق لايلاف ثم ابدل المقيد منه للتفخيم وروى عن الاخفش أن الجار متعلق بمضمر أى فعلنا مافعلنا من اهلاك أصحاب الفيل لايلاف قريش وقال الكسائى والفراء كذلك الا انهما قدرا الفعل بدلالة السياق اعجبوا كأنه قيل أعجبوا لايلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة الله تعالى الذى أعزهم ورزقهم وآمنهم فلذا أمروا بعبادة ربهم المنعم عليهم بالرزق والامن عقبه وقرن بالفاء التفريعية وعن الاخفش أيضا أنه متعلق بجعلهم كعصف في السورة قبله والقرآن كله كالسورة الواحدة فلا يضر الفصل بالبسملة خلافا لجمع والمعنى أهلك سبحانه من قصدهم من الحبشة ولم يسلطهم عليهم ليبقوا على ما كانوا عليه من ايلافهم رحلة الشتاء والصيف أو أهلك عز وجل من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترىء عليهم أحد فيتم لهم الامن في رحلتهم ولا ينافي هذا كون اهلاكهم

لكفرهم باستهانة البيت لجواز تعليله بامرين فان كلا منهما ليس علة حقيقية ليمتنع التعدد وقال غير واحد ان اللام للعاقبة وكان لقريش رحلتان رحلة في الشتاء الى اليمن ورحلة في الصيف الى بصرى من أرض الشام كما روى عن ابن عباس وكانوا في رحلتيهم آمنين لانهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب وعن ابن عباس أيضا أنهم كانوا يرحلون في الصيف الى الطائف حيث الماء والظل ويرحلون في الشتاء الى مكة للتجارة وسائر أغراضهم وأفردت الرحلة مع أن المراد رحلتا الشتاء والصيف لامن اللبس وظهور المعنى ونظيره قوله ✿ حمامة بطن لواديين ترنمي ✿ حيث لم يقل بطنى الواديين وقوله

كلوا في بعض بطنكم تعفوا ✿ فان زمانكم زمن خميص

حيث لم يقل بطونكم بالجمع لذلك وقول سيبويه ان ذلك لايجوز الا فى الضرورة فيه نظر وقال النقاش كانت لهم أربع رحل وتعقبه ابن عطية بأنه قول مردود وفى البحر لاينبغى أن يرد فان أصحاب الايلاف كانوا أربعة اخوة وهم بنو عبد مناف هاشم كان يؤالف ملك الشام أخذ منه خيلا فأمن به في تجارته الى الشام وعبد شمس يؤالف الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس فكان هؤلاء يسمون المتجرين فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الاخوة فلا يتعرض لهم قال الازهرى الايلاف شبه الاجارة بالخفارة فان كان كذلك جاز أن يكون لهم رحل أربع باعتبار هذه الاماكن التى كانت التجارة في خفارة هؤلاء الاربعة فيها فيكون رحلة هنا اسم جنس يصلح للواحد وللاكثر وفي هؤلاء الاخوة يقول الشاعر

يا أيها الرجل المحول رحله ✿ هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها ✿ والراحلون لرحلة الايلاف
والرائشون وليس بوجد رائش ✿ والقائلون هلم للاضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم ✿ حتى يصير فقيرهم كالكافي

انتهى وفيه مخالفة لما نقلناه سابقا عن الهروى ثم ان إرادة ماذكر من الرحل الاربع غير ظاهرة كما لايخفى وقرأ ابن عامر لالاف قريش بلاياء ووجه ذلك عامر ولم تختلف السبعة في قراءة ايلافهم بالياء كما اختلف فى قراءة الاول ومع هذا رسم الاول فى المصاحف العثمانية بالياء ورسم الثانى بغير ياء كما قاله السمين وجعل ذلك احد الادلة على ان القراء يتقيدون بالرواية سماعا دون رسم المصحف وذكر في وجه ذلك انها رسمت في الاول على الاصل وتركت في الثانى اكتفاء بالاول وهو كما ترى فتدبر وروى عن أبى بكر عن عاصم أنه قرأ بهمزتين فيهما الثانية ساكنة وهذا شاذ وان كان الاصل وكانهم انما أبدلوا الهمزة التى هي فاء الكلمة لثقل اجتماع همزتين وروى محمد بن داود النقار عن عاصم ائيلا فهم بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ناشئة عن حركة الهمزة الثانية لما أشبعت والصحيح رجوعه عن القراءة بهمزتين وانه قرأ كالجماعة وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشرى لالف قريش وقرأ فيما حكى ابن عطية الفهم وحكيت عن عكرمة وابن كثير وأنشدوا

زعمتم أن إخوتكم قريش ✿ لهم إلف وليس لكم إلاف

وعن أبى جعفر أيضا وابن عامر إلافهم على وزن فعال وعن أبى جعفر أيضا ليلاف بياء ساكنة بعد اللام ووجه بانه لما أبدل الثانية ياء حذف الاولى حذفا على غير قياس وعن عكرمة ليألف قريش على صيغة المضارع المنصوب بان مضمرة بعد اللام ورفع قريش على الفاعلية وعنه أيضا لتألف على الامر وعنه وعن هلال بن فتيان بفتح لام

الامر والظاهر ان ايلافهم على جميع ذلك منصوب على المصدرية ولم أر من تعرض له وقرأ أبو السمال رحلة بضم الراء وهي حينئذ بمعنى الجهة التى يرحل اليها وأما مكسور الراء فهو مصدر على ما صرح به في البحر ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ هو الكعبة التى حميت من أصحاب الفيل وعن عمر أنه صلى بالناس بمكة عند الكعبة فلما قرأ فليعبدوا رب هذا البيت جعل يومى باصبعه اليها وهو في الصلاة بين يدى الله تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا منهما بواسطة كونهم من جيرانه ﴿ مِنْ جُوعٍ ﴾ شديد كانوا فيه قبلهما وقيل أريد به القحط الذى أكلوا فيه الجيف والعظام ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ عظيم لايقادر قدره وهو خوف أصحاب الفيل اوخوف التخطف في بلدهم ومسايرهم أوخوف الجذام كما اخرج ذلك ابن جرير وغيره عن ابن عباس فلا يصيبهم في بلدهم فضلا منه تعالى كالطاعون وعنه ايضا انه قال اطعمهم من جوع بدعوة ابراهيم عليه السلام حيث قال وارزقهم من الثمرات وآمنهم من خوف حيث قال ابراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آمنا. ومن قيل تعليلية أى أنعم عليهم وأطعمهم لازالة الجوع عنهم ويقدر المضاف لتظهر صحة التعليل أو يقال الجوع علة باعثة ولا تقدير وقيل بدلية مثلها في قوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وحكى الكرمانى في غرائب التفسير انه قيل في قوله تعالى وآمنهم من خوف ان الخلافة لاتكون الا فيهم وهذا من البطلان بمكان كما لا يخفى وقرأ المسيبى عن نافع من خوف باخفاء النون فى الخاء وحكى ذلك عن سيبويه وكذا اخفاؤها مع العين نحو من على مثلا والله تعالى أعلم

تفسير سورة قريش

مكية؛ في قول الجمهور. ومدنية؛ في قول الضحاك والكلبي وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾.

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتُؤْلِف رحلتيها. وممن عدّ السورتين واحدة أبيّ بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معاً. وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى: ﴿والتينِ والزَّيتُونِ﴾ وفي الثانية ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف ﴾ و ﴿ لإيلافِ قُرَيشٍ ﴾. وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى[1] ؛ لأنه ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لإيلاف قُريش ﴾ أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش . وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها ، فلا يُغار عليها ولا تُقْرب في الجاهلية. يقولون: هم أهل بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحب الفيل

---

(١) الذي في كتاب الفراء: «قال بعضهم كانت موصولة بـ ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ الخ.

ليهدم الكعبة؛ ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُج الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكَّرهم نِعْمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أي ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدّثنا أحمد بن شُعيب قال أخبرني عمرو بن عليّ قال: حدّثني عامر بن إبراهيم ـ وكان ثقة من خيار الناس ـ قال حدّثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدّثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافُهُمْ رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآيِ وإن لم يكن الكلام تاماً؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿فلْيعبدوا﴾ أي فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار[1]. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: أَلَّفَ الله قريشاً إيلافاً فليعبدوا ربَّ هذا البيت. وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيداً فأضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ لام التعجب؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائيّ والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: ﴿لإئلافِ قريش﴾ مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج ﴿لِيلَافِ﴾ بلا همز طلباً للخفة. الباقون ﴿لإيلاف﴾ بالياء مهموزاً مشبعاً؛ من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً. قال الشاعر:

المُنْعِمِيـن إذا النجـوم تغيـرتْ والظـاغنيـنَ لـرحلـةِ الإيـلافِ

ويقال: أَلِفْتُه إِلْفاً وإلافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: ﴿لإلْفِ قُرَيش﴾ وقد جمعهما من قال:

زَعَمْتُمْ أنّ إخوتَكُمْ قُرَيشٌ[2] لهـم إلـف وليـس لكـم إلاف

قال الجوهريّ: وفلان قد أَلِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألفُه إلْفاً، وآلفه إياه غيره. ويقال أيضاً: آلَفت الموضع أُولِفه إيلافاً. وكذلك: آلفت الموضع أُولفُه مُؤالفة وإلافا؛

---

(١) أي لجلب الطعام. (٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفي «اللسان وشرح القاموس»: «قريشاً» بالنصب على البدل.

فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عِكرمة ﴿لَيَأْلَفْ﴾ بفتح اللام على الأمر. وكذلك هو في مصحف ٱبن مسعود. وفتح لام الأمر لغة حكاها ٱبن مجاهد وغيره. وكان عكرمة يعيب على من يقرأ ﴿لإيلاف﴾. وقرأ بعض أهل مكة ﴿إلاف قريش﴾ وٱستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فلاَ تُتْرِكَنْه ما حييتَ لِمُعْظَمٍ وكنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ
تذود العِدا عن عُصْبة هاشميةٍ إلا فهُم في الناس خيرُ إلاَفِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدرِكة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشيّ دون بني كِنانة ومن فوقه. وربما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قُرَيْشِيّ عليه مَهابة(١)

فإن أردت بقريش الحيّ صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها(٢)

والتقريش: الاكتساب، وتقرّشوا أي تجمعوا. وقد كانوا متفرّقين في غير الحرم، فجمعهم قُصَيّ بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مَسْكنا. قال الشاعر:

أبونا قُصَيّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً به جمع الله القبائلَ من فِهرِ

وقد قيل: إن قريشاً بنو فِهر بن مالك بن النضر. فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشيّ. والأوّل أصح وأثبت. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنا ولد النضر بن كنانة لانقفوا(٣) أُمنا، ولا ننتفِي من أبينا». وقال واثلة بن الأسْقع: قال النبيّ

---

(١) تمامه:

سريع إلى داعي الندى والتكرم

(٢) هذا عجز بيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك. وصدره كما في «اللسان»:

غلب المساميح الوليد سماحة

(٣) قفا فلان فلاناً: إذا قذفه بما ليس فيه، أي لا نتهمها ولا نقذفها، وقيل: معناه لا نترك النسب إلى الآباء، وننتسب إلى الأمهات.

ﷺ: «إن اللّهَ اْصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واْصطفى من بني كِنانة قريشاً، واْصطفى من قريش بني هاشم، واْصطفاني من بني هاشم». صحيح ثابت، خرّجه البخاريّ ومسلم وغيرهما. واْختلِف في تسميتهم قريشاً على أقوال: **أحدها** ـ لتجمُّعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُري[1]:

إخوة قَرَّشُوا الذنوبَ علينا ... في حديثٍ مِن دهرهمْ وقديم

الثاني ـ لأنهم كانوا تِجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقرُّش: التكسُّب. وقد قَرَشَ يَقْرُشُ قَرْشاً: إذا كسب وجمع. قال الفرّاء: وبه سميت قُريش. **الثالث** ـ لأنهم كانوا يفتشون الحاج[2] من ذي الخَلة، فيسدّون خَلته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر:

أَيُّهَا الشامتُ المقرش عنا ... عند عمرو فهلْ له إبقاء[3]

الرابع ـ ما روي أن معاوية سأل اْبن عباس لم سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرش؛ تأكل ولا تؤكل؛ وتعلوا ولا تُعْلَى. وأنشد قول تُبَّع:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الرث والسمين ولا تتـ ... ـرك فيها لذي جناحين رِيشا
هكذا في البلاد حيّ قُرَيشٍ ... يأكلون البلاد أكلاً كمِيشا[4]
ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ ... يكثر القتل فيهم والخُموشا[5]

[٢] ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾.

قرأ مجاهد وحميد ﴿إلفِهم﴾ ساكنة اللام بغير ياء. وروي نحوه عن اْبن كثير. وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿إلفِهم﴾. وروى عن اْبن عباس

---

(١) ضبطه في التاج بكسر الجيم. (٢) الحاج: جماعة الحجاج. والخلة (بالفتح): الحاجة والفقر.
(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكري في معلقته. وروايته كما في شرح المعلقات:

أيها الناطق المرقش عنا ... عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزي: «المرقش: المزين القول بالباطل، ليقبل منه الملك باطله. ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم. ومعنى «وهل لذاك بقاء»: «إن الباطل لا يبقى». وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه.
(٤) أي سريعاً.
(٥) الخموش: (جمع الخمش)، وهو مثل الخدش، يكون في البدن والوجه.

وغيره. وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة ﴿إلَافِهم﴾ مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿إئلافهم﴾ بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة. والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ. الباقون ﴿إيلافهم﴾ بالمدّ والهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأوّل للبيان. وهو مصدر آلف: إذا جعلته يألف. وأَلِف هو إلفا؛ على ما تقدّم ذكره من القراءة؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إيلافِهِم رِحلةَ الشتاء والصيف﴾ قال: لا يشُق عليهم رحلة شتاء ولا صيفٍ، مِنَّةٌ منه على قريش. وقال الهَرَوِيّ وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يُؤْلف مَلِك الشام؛ أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحَبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤْلف يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّون المُجِيرين. فكان تِجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّض لهم. قال الأزهريّ: الإيلاف: شبه الإجارة بالخَفارة[١]؛ يقال: آلف يُؤْلِف: إذا أجار الحمائل بالخَفارة. والحمائل: جمع حَمولة[٢]. قال: والتأويل: أن قُريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضَرْع، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخَطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حَرَم الله، فلا يَتَعَرضُ الناس لهم. وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿لإيلافِ قُرَيْش﴾ إلفَهم رحلة الشتاء والصيف. وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة[٣]، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيداً

---

(١) في بعض نسخ الأصل: «الإجارة والخفارة» ولم نجد هذا في كتاب التهذيب للأزهري ولا في غيره من كتب اللغة. والإجارة: الإغاثة والحماية. والخفارة (مثلثة الخاء): الأمان.

(٢) الحمولة (بالفتح): الإبل التي تحمل.

(٣) المخمصة: المجاعة.

في زمانه، وله ٱبن يقال له: أسَد، وكان له تِرْب[١] من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه. فقال له: نحن غداً نعتفد» قال ٱبن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كانت بالدال، فما أدري معناها[٢]، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد. قال: فدخل أسد على أمّه يبكي، وذكر ما قاله تِربه. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إن تربه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربِه، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقِلون فيه وتكثر العرب، وتذِلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تبع. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا تِرب أسد ـ فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنه نحر البدن، وذبح الكِباش والمعز، ثم هشم الثرِيد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي[٣] هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنِتون[٤] عِجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ، فقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيتِ الذِي أطعمهم مِن جوعٍ﴾ بصنيع هاشم ﴿وآمنهم مِن خوفٍ﴾ أن تكثر العرب ويقِلوا.

---

(١) الترب (بالكسر): اللدة ومساويك في السن ومن ولد معك. (٢) في «اللسان» مادة عفد: «الاعتفاد: أن يغلق الرجل بابه على نفسه، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً. (٣) في «اللسان»: «عمرو العلا...». (٤) مسنتون: أي أصابتهم السنة. والسنة: الجدب والقحط.

قوله تعالى: ﴿رِحلة الشتاءِ والصيفِ﴾ ﴿رِحلَةَ﴾ نصب بالمصدر؛ أي ٱرتحالهم رِحلة، أو بوقوع ﴿إيلافهم﴾ عليه، أو على الظرف. ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف؛ لجاز. والأوّل أولى. والرحلة الارتحال. وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف لهوائها. وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحية حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتِـــي بمكـــة نَعْمَـــةً ومَصِيفُهــا بــالطّــائــفِ

وهنا أربع مسائل:

الأولى ـ اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ وغيره من العلماء: أن قوله تعالى: ﴿لإيلافِ﴾ متعلق بما قبله. ولا يجوز أن يكون متعلقاً بما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ـ وقد قطع عنه بكلام مبتدإ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقد تبين جواز الوقف في القراءة[(١)] للقرّاء قبل تمام الكلام، وليست المواقف التي ينتزع[(٢)] بها القُرّاء شرعاً عن النبيّ ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا عِلموها وقفوا حيث شاءوا. فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تُعِد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ٱبدأ من حيث وقف بك نَفَسك. هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءة النبي ﷺ ﴿الحمد لِلَّهِ رب العَالَمِين﴾ ثم يقف. ﴿الرحْمَنِ الرَّحِيم﴾ ثم يقف. وقد مضى في مُقَدّمة الكتاب[(٣)]. وأجمع المسلمون أن

(١) في ابن العربي: «في القرآن».
(٢) في ابن العربي: «تنزع».
(٣) راجع ١/ ١٠ فيما بعد.

الوقف عند قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ليس بقبيح. وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلاّ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ﴾ انتهاء آية. فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي. وأيضاً فإن الفواصل حِلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور. ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وترك الوقوفِ يُخفي تلك المحاسن، ويُشَبِّه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية ـ قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبد الرحمن[١] ومن معه، لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريا، وهو يوم التاسعَ عَشَرَ من بشنس، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد[٢] الروم أو الفرس. وأراد[٣] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أوّل[٤] الصيف ودُبُرَ الشتاء. وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهب وحده: إذا سقَطَتِ الهَقْعَة[٥] نقص الليل، فلما جُعل طلوع الثريا أوّل الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم آمرأ حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور. ولو قال حتى يدخل الصيف؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس. قال القُرَظِيّ: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذا حسبت المنازل

---

(١) هو ربيعة الرأي، أدرك بعض أصحاب النبيﷺ والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة؛ وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره. توفي سنة ١٣٦هـ. (٢) كذا في «الأصول وابن العربي». أي من عدد شهورهم. (٣) كذا في «ابن العربي. وفي نسخ الأصل: «وأرى».

(٤) في «أبن العربي»: «قبل الصيف». (٥) الهقعة: ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض، فوق منكب الجوزاء، وهي منزل من منازل القمر.

على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة - قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف. وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقَيظ، وخرِيف. والذي قاله مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين[١] ولم يجعل لهما ثالثاً.

الرابعة - لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاء وصيفاً، على ما تقدّم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس في المجلس البحْري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادَهنجَات[٢] والخَيْش للتبريد، واللِّبد واليانوسة[٣] للدّفء.

[٣] ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين. ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأن المعنى: إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: **أحدهما**: لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها. **الثاني**: لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذكر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته. وقيل: ﴿فَلْيَعبُدوا رَبَّ هذا البيتِ﴾ أي ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى

---

(١) في «الأصول»: «لأن قسمة الله للزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً» وهي غير مستقيمة. وفي «ابن العربي» «لأجل قسمة الله الزمان قسمين. . . الخ».

(٢) في كتاب «شفاء العليل» للشهاب الخفاجي: «الباد هنج» معرب بادخون أو بادكير، منفذ للهواء في سقف البيت.

(٣) في «ابن العربي»: «اليانوس». ولم نجد في المعاجم العربية هذه المادة.

ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هَذا البيتِ﴾ أي يقيموا بمكة. رحلة[١] الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

[٤] ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ ﴾ أي بعدَ جوع. ﴿ وآمنهم مِن خوفٍ ﴾ قال ٱبن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱجعلْ هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِن الثَّمراتِ ﴾[٢]. وقال ٱبن زيد: كانت العرب يُغير بعضها على بعض، ويَسْبِي بعضها من بعض، فأَمِنَتْ قُرَيش من ذلك لمكان الحرم ـ وقرأ ـ ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكن لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليهِ ثَمَرَاتُ[٣] كل شيءٍ ﴾. وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهمْ، وظنوا أنهم قدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرّزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ ٱجْعلْهَا عليهمْ سِنِينَ كسِنِي يُوسُف» فاشتد القَحْط، فقالوا: يا محمدُ ٱدعُ الله لنا فإنا مؤمنون. فدعا فأخصبَتْ تَبَالة وجُرَشُ من بلاد اليمن؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: ﴿ وآمنهم مِنْ خَوْفٍ ﴾ أي من خوف الجُذام، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام. وقال الأعمش: ﴿ وآمنهم مِن خوفٍ ﴾ أي من خوف الحَبَشة مع الفيل. وقال عليّ رضي الله عنه: وآمنهم مِن [خوف][٤]: أن تكون الخلافة إلاَّ فيهم. وقيل: أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

(١) يريد: يقيموا بمكة: ويتركوا الرحلة... الخ.
(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة.
(٣) آية ٥٧ سورة القصص.
(٤) التكملة عن تفسير الخطيب.